

المثُل والقيَم الأخلاقية في الشعر الجاهلي

للدكتور عفيف عبدالرحمن

(جامعة اليرموك)

لقد فرضت الصحراء على العرب طباعاً وأخلاقاً خاصة تناسبهم، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولاً، ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة، وصارت لهم عنواناً بين الناس. وصقلتهم الحروب التي اكتوت الجزيرة بناها رداً من الزمن، حتى قال شاعرهم مصوراً حياتهم خير صورة:

يُغار علينا واترين فيُشْتَقَى بنا أن أصد بنا أو نغير على وتر
قسماً بذاك الدهر شطرين فما ينقضي إلا ونحن على شطر^(١)

ونستطيع أن نزعج بأن تلك الحياة الجاهلية الضنكة، والحروب التي اشتعلت، قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده، فنشأت وتكونت مجموعة من القيم والمثل تعارف عليها المجتمع وأمن بها واحترمها والتزم بها. ولكن ذلك لا يعني أن عادات أخرى وتقاليد كانت تصبغ الحياة، فتسمها بالظلم والفوضى والسفه لم تكن موجودة. والذي سنوليه الاهتمام في هذه المقالة هو اللون الأول من أعراف الجاهلية وتقاليدها، أي الوجه المشرق من تلك الحياة، لأننا نظلم تلك الفترة من تاريخ أمتنا إن نحن أغمضنا أعيننا عن هذا الجانب، وقلنا إن العرب لم تكن لهم قيم قط، وإنهم كانوا أمة تتخبط في الظلام؛ وإلا فبم نفس تلك الآيات الكريمة التي تجادلهم وتحاورهم؟ وبم نفس دخولهم جميعاً في دين الله أفواجاً في زمن لم يتعد أحد عشر عاماً، ثم حملوه إلى العالم أجمع؟

(١) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٨٢٦/٢.

ويبدو أن ذلك المجتمع، بالرغم من تنافر قبائله وتطاحنهما، وعدم تلمسها وإحساسها بشعور الانتماء إلى أصل واحد، اتفق على أمور كثيرة وتعارف عليها. وكانوا يجدون من أوقات الفراغ، ما يجعلهم يحسون بالطمأنينة النسبية مما يجعلهم يشغلون تلك الأسواق، ويعمرونها بالبيع والشراء والاستماع إلى الخطب البليغة، والأشعار الرائقة الرائعة، وتبادل الخبرات، والزواج بل حتى تبادل الأسرى.

لقد تعارفوا على أسواق تشكل في مجموعها سلسلة متصلة تبدأ من أقاصي أطراف الجزيرة في عمان وتنتهي بعكاظ حيث يذهبون إلى مكة للحج إلى بيت الله الحرام. وكانت أوقات افتتاح تلك الأسواق تبدأ مع الانتهاء من السوق المجاور. ومن أهم تلك الأسواق: دومة الجندل (أول يوم من ربيع الأول)، وسوق هَجْر (في شهر ربيع الآخر)، وسوق آدم وقرى الشحر، وسوق عدن أبين، وسوق صنعاء، وسوق عكاظ؛ ويتوجهون بعد ذلك إلى مكة، فيقفون بعرفة، ويقضون مناسك الحج، ويرجعون إلى أوطانهم^(٢). وكانت الأوقات المخصصة لتلك الأسواق تتفق وهذنة تعارفوا عليها، تلك هي الأشهر الحرم^(٣) التي لا قتال فيها؛ ذلك ما آمنوا به جميعاً، يتفرغون فيها للاتصال ببعضهم في المواسم والأسواق، ويحجون بعد ذلك إلى بيت الله الحرام. وتعارفوا أيضاً على قوانين تنظم علاقاتهم في أثناء التقائهم في تلك الأسواق يلتزمون بها، من أهمها أن لا سلاح يحمل في السوق، بل تودع الأسلحة عند رجل له منزلته ومكانته قبل الدخول إلى السوق. وفي هذه الأسواق يتم تبادل الأسرى، كما يتم حل المظالم التي تعجز القبيلة عن حلها حيث يَبُتُّ فيها حكام هذه الأسواق الذين يحظون بمكانة مرموقة بين القبائل.

(٢) سبائك الذهب (١١٩-١٢٠).

(٣) الأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

ولا يفوتنا أن نشيد هنا بدور هذه الأسواق في بروز طبقة من الحكماء والخطباء والحكام ما زالت وصاياهم وحكمهم تُتناقل بين أفواه الناس إلى يومنا هذا، ودورها أيضاً في خلق لغة أدبية تعارف عليها الجميع في تلك الأسواق، وهي اللغة الفصحى، لغة القرآن الكريم، التي تشكلت من لغات القبائل.

وهكذا ولّدت تلك الظروف من جذب الأرض التي يغلب عليها الطابع الصحراوي، وحياة التحرك للحرب والسلم، والاحتكاك فيما بين القبائل في السلم والحرب، قيماً ومثلاً تعارف الجميع عليها، وعملوا بها، ثم أصبحت مثلاً يفخرون بها، ويفخرون بها غيرهم.

وتقتصر هذه المقالة على أهم هذه القيم والمثل.

وأول تلك الفضائل والقيم التي حرصوا عليها أشد الحرص، فمدحوا التمسك بها، وذموا وهجوا التخلي عنها، الكرم؛ والكرم في اللغة يعني ما استفاده الإنسان من خلق كريم، أو طبع عليه^(٤)، وهو أيضاً شرف في الشيء في نفسه، أو شرف في خلق الأخلاق^(٥)؛ ويُعرّف ابن الأثير الكريم بأنه الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل^(٦). فالكرم جماع شرف النسب والسخاء، وإتيان الفعل النبيل. وسنقصر حديثنا على السخاء، لأن الصفتين الأخيرتين ليس مكانهما في هذه المقالة؛ وإتيان الفعل النبيل يكون أعم وأشمل من السخاء، وشرف النسب مما يفاخر به كل عربي.

وكانت العرب تمتدح الكريم السخي عندما يشتد القحط، ويقلّ الزاد، وتضيق اليد، يقول المسيب بن علس مادحاً القعقاع بن معبد بن زرارة،

(٤) جمهرة اللغة مادة (كرم).

(٥) معجم مقاييس اللغة - ابن فارس ١٧١/٥.

(٦) النهاية في غريب الحديث - ابن الأثير ١٦٦/٤.

الذي كانوا يدعونه بتيار الفرات الذي يسخو ويجود في وقت الشدة والبرد، حيث
يحلّ الجميع ببيته، وهو بهذا العمل أجود من الخليج، ومن هنا جاءت تسميته
بتيار الفرات:

وَإِذَا تَهَيَّجَ الرِّيحُ مِنْ صُرَادِهَا تُلْجَأُ يُنِيخُ النَّيْبَ بِالْجَعَجَاعِ
أَحَلَّتْ بَيْتِكَ بِالْجَمِيعِ، وَبَعْضُهُمْ مَتَفَرِّقٌ لِيَحِلَّ بِالْأَوْزَاعِ
وَلَأَنْتَ أَجُودُ مِنْ خَلِيجِ مَفْعَمٍ مَتَرَاحِمِ الْأَذْيِ ذِي دُقَّاعِ^(٧)

ويمتدح عمرو بن شأس قوماً يجودون في أوقات المحل فيقول:
المطعمون إذا النجومُ خَرَّتْ وأحاط بالمتوحّد المحلُّ^(٨)

ويكرر المعنى ذاته في موضع آخر فيقول:
وَإِنْ يَأْتِنَا ذُو حَاجَةٍ يُلْفِ وَسَطْنَا مَجَالِسُ يَنْفِي فَضْلُ أَحْلَامِهَا الْجَهْلَا
مَصَالِيْتُ أَيْسَارًا إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا نَعْفُ وَنُغْنِي عَنْ عَشِيرَتِنَا الثَّقَلَا^(٩)

ويقول سلامة بن جندل التميمي في المعنى نفسه:
كنا إذا ما أتاننا صارخٌ فَرَعٌ كان الصراخُ له قَرَعُ الظنابيبِ^(١٠)

ويؤكد المعنى نفسه شاعر بني عامر بن الطفيل فيقول:

(٧) المفضلية رقم (١١).

(٨) ديوانه (٤٢).

(٩) ديوانه (٤٨).

(١٠) المفضلية رقم (٢٢).

إِذَا سَـنَةٌ عَزَّتْ وَطَالَ طَوَالُهَا وَأَقْحَبَتْ عَنْهَا الْقَطْرَ وَاصْفَرَ عَوْدُهَا
وُجِدْنَا كِرَاماً لَا يُحَدِّوْنَ ضَرَفِنَا إِذَا جَفَّ فَوْقَ الْمُنْزَلَاتِ جَلِيدُهَا^(١١)

ويحدثنا شاعر آخر هو عمرو بن الأهتم قصة رجل ضلَّ طريقه ليلاً، فاستضافه، ورحب به، وقام إلى بعير سمين من إبل القوم فنحره، وظل يطعم الضيف حتى شبع؛ ثم نام قرير العين مستدفئاً من البرد الشديد. وهو يخبرنا في نهاية القصة أن كل كريم يجب أن يتقي ذم الناس له بالقرى.

وإني كريم ذو عيال تَهْمُنِي نَوَائِبُ يَغْشَى رُزُومَهَا وَحَقُوقُ^(١٢)
ومستبجٍ بعد الهدوء دعوته وَقَدْ حَانَ مِنْ نَجْمِ الشِّتَاءِ خُفُوقُ
يعالج عرنيناً من الليل بارداً تَلَفَ رِيَّاحٌ ثَوْبَيْهِ وَبِرُوقُ
تألَّقَ في عينٍ من المزنِ وادقٍ لَهُ هَيْدَبٌ دَانِي السَّحَابِ دَفُوقُ
أضفتُ فلم أفحش عليه ولم أقل لِأَحْرِمَ هـ: إِنْ الْمَكَانَ مَضِيقُ
فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً فَهَذَا صَبَّ بُوْحٍ رَاهِنٍ وَصَدِيقُ
وقمنا إلى البرِّكِ الهواجد فاتقت مَفَاحِيدَ كَوْمٍ كَالْمَجَادِلِ رُوقُ

إلى أن يقول:

فبات له منها وللضيف موهناً شِوَاءَ سَمِينٍ زَاهِقٍ وَعَبُوقُ
وبات له دون الصِّبَا وهي قَرَّةٌ لِحَافٍ وَمَصْقُولِ الْكِسَاءِ رَقِيقُ
وكل كريم يتقي الذم بالقرى وَلِلْخَيْرِ بَيْنَ الصَّالِحِينَ طَرِيقُ

(١١) ديوانه (٤٦-٤٧).

(١٢) المفضلية رقم (٢٣).

ويتذكر متمم بن نويرة أخاه فيبيكيه معدداً خصاله:

فَعَيْدِيَّ هَلَّا تَبْكِيَانِ لِمَالِكِ إذا أَذْرَتِ الرِّيحُ الكَنِيفَ المَرْفَعَا
وللشَّزْبِ فابكي مالِكاً ولُبُهْمَةَ شديد نواحيه على من تشجَّعا
وضيف إذا أرغى طُروقاً بَعِيرَه وعانِ ثَوَى فِي القِدِّ حَتَّى تَكْنَعَا
وأرملة تمشي بأشعث مُحْتَلِّ كفَرخِ الحُبَارَى رَأْسُه قَد تَضَوَّعا^(١٣)

ولا يرضى شاعر آخر بنحر الكسيرات المهزولات من الإبل، بل إن قومه
ليغتبطون خيار الإبل وكرائمها عند حلول الضيفان:

ويجلب ضيرس الضيف فينا إذا شتا سديف السنام تستريه أصابعه^(١٤)

واستهجنت زوج الهدلول بن كعب العبيري، وقد رأت زوجها يطحن
للضيفان، فقال قصيدة منها:

لعمر أبيك الخير إنني لخادم لضيفي وإنني إن ركبتُ لفارسُ
وإنني لأشري الحمد أبغي رباحه وأترك قرني وهو خزيانُ ناعسُ^(١٥)

وكانت عادة العرب في الجذب إذا استعار أحدهم قدراً أن يرد فيها شيئاً
من الطعام. وقد عبّر عن ذلك، بالإضافة إلى إيقاد النار في الليل ليهتدي
الحائر إليها، شاعرهم عوف بن الأحوص فقال:

(١٣) المفضلية (٦٧).

(١٤) الشعر لجحدر بن خالد - شرح الحماسة للمرزوقي ٥١٦/٢.

(١٥) المصدر السابق ٧٠٠/٢.

ومستنجح يخشى القواء ودونه
رفعت له ناري فلما اهتدى بها
فلا تسأليني واسألني عن خليقتي
وكانوا قعوداً حولها يرقبونها
ترى أن قـدري لا تزال كأنها
مبرزة لا يجعل الستر دونها
من الليل باباً ظلمة وستورها
زجرت كلابي أن يهـرّ عقورها
إذا ردّ عافي القدر مـن يستعيرها
وكانت فتاةً الحيّ ممن يُنيرها
لذي الفروة المقرور أم يزورها
إذا أحمـد النيران لاح بشيرها^(١٦)

ويعتبر العربي بذل المال قرى للضيف وإغاثة للملهوف، ودفع دية، ونحو ذلك، حقاً لازماً لا مفر منه. ويفخر ربيعة بن مقروم الضبي بقومه الذين يفعلون ذلك، فيقول:

أليسوا الذين إذا أزمّة
يُهينون في الحق أموالهم
ألحّت على الناس تُنسي الخلوما
إذا اللّزبات التّحـين المُسيـما^(١٧)

ويفخر الحارث بن حلزة اليشكري بأن قومه يكرمون الضيف حينما يجذب المرعى، ويشتدّ البرد، فإن لم يكن في إبلهم لبن عطفوا على القداح فضربوا بها للأضياف، فنحروا لهم:

وإذا اللقاح تروّحت بعشيّة
ألفيتنا للضيف خير عمارة
رثك النعام، إلى كنيف العزّج
إن لم يكن لبن فعطّف المُدمج^(١٨)

وكثيراً ما يقترن السخاء والجود بحميد الفعال، لأن حب الخير يعين على

(١٦) المفضلية رقم (٣٦).

(١٧) المفضلية رقم (٣٨).

(١٨) المفضلية رقم (٦٢).

البذل. والشواهد في الشعر الجاهلي أكثر من أن تحصى؛ وثمة دليل آخر، وهو أن الحديث عن الجود والسخاء يأتي خلال الحديث عن الفخر؛ وعناصر الفخر في العصر الجاهلي تكاد تكون محددة ومعروفة، اللهم إلا في بعض الحالات الشاذة، كالفخر ببقر بطون الحبالي. فالجاهلي يفخر بحسبه ونسبه، ويفخر بالشجاعة، وبنجدة الملهوف، وبالكرم، وإغاثة الملهوف، وبحماية الجار، وكل تلك القيم التي حرص عليها المجتمع الجاهلي وصقلتها تلك البيئة حتى أصبحت أعرافاً وتقاليد التزموا بها.

ويعتبر الجاهلي بذل المال سترأً ووقاية لعرضه حيث يقول:

أَجْعَلُ الْمَالَ لِعَرْضِي جُنَّةً إن خير المال ما أدى الذمم^(١٩)

ولا تنقص قلة المال من قيمة الرجل الكريم الحسب والخصال؛ يقول

الطفيل الغنوي:

إني وإن قَلَّ مالي لا يفارقني مثل النعامة في أوصالها طول^(٢٠)

ومن هذه القيم حرصهم على المرأة، وقد كان شديداً. وتغنوا بالحفاظ

على الشرف والعرض، ونشبت حروب كثيرة بسبب محاولة اعتداء قوم على

امرأة من قبيلة أخرى، بل بسبب إهانة تلحق بامرأة كما في بعض حروب

الفجار. ولعل ذلك قد حملهم على أخذ نسائهم معهم في الحروب حتى لا

تتخلف في الحي، فيأتي قوم ويسبون النساء، وذلك مما يجلب العار للقبيلة.

لذلك افتخر شعراؤهم بحماية النساء. يقول سلامة بن جندل التميمي:

(١٩) المفضلية (٧٨) والشعر للمتعب العبدى.

(٢٠) ديوان الطفيل الغنوي (٥٧).

بأنا منعنا بالفروقِ نساءنا ونحن قتلنا مَن أتنانا بمُلزقٍ^(٢١)

ويقارن عمرو بن حوط الرياحي بين قومه وآخرين في يوم طخفة بقوله:
فما قوم كقومي حين يُخشَى على الخِودِ المَخْدِرة الفِضاحُ
أذَّبَ عن الحفائظ في مَعَدِّ إذا ما جَدَّ بالقوم النِطاحُ^(٢٢)

وقوم ربيعة بن مقوم الضبي يمنعون حريمهم:
طوال الرماح غداة الصباح ذوو نجدة يمنعون الحريما^(٢٣)

ويفخر الطفيل الغنوي بأنه يحافظ على حليلة جاره ولا يخونه:
ولا أخالف جاري في حليلته ولا ابن ودي غالتني إذا غول^(٢٤)

وكان من عوامل الثبات والنصر في النهاية في يوم ذي قار أن بعض القادة أشار - حينما رأى قوة الفرس - على القوم بالانسحاب إلى الصحراء، المعقل الطبيعي، ولكن زعيماً آخر مال إلى الإبل التي تحمل حريمهم فقطع وضنها، وقال: ليدافع كل منكم عن حريمه. وثبت القوم وانتصروا في النهاية^(٢٥).

وقد شبهها بعضهم بالأثُرَجَّة التي تفوح بالرائحة الطيبة:

(٢١) ديوانه (١٦).

(٢٢) النفاضة لأبي عبيدة ٦٩/١.

(٢٣) المفضلية رقم (٣٨).

(٢٤) ديوانه (٥٨).

(٢٥) انظر قصة يوم ذي قار في تاريخ الطبري، الجزء الثاني، النفاضة ٦٤٣/٢.

يحملن أُثْرَجَةً نُضِيحُ العبير بها كأن تَطْيَابها في الأنف مشمومٌ^(٢٦)

وبالرغم من حرص العربي على صون شرف المرأة إلا أن ذلك لم يمنع
من أخذهم على حين غرة ، فتسبى النساء؛ وكان السبي عاراً يلحق بالقبيلة،
 ويفخر به المنتصرون، ويعيرون خصومهم. يقول بشر بن أبي خازم الأسدي
معرضاً ببني عامر:

بني عامرٍ إِنِّي تركنا نساءكم من الشل والايجاف تَدِمَى عيوبها

عضاربطنا مستبطنو البيض كالدّمى مضرجة بالزعفران جيوبُها

تبيت النساء المرضعات برهوة تُفَرِّعُ من خوف الجنان قلوبُها^(٢٧)

ويصور عوف بن عطية التميمي نساء حي فاجأهم وفرسان عشيرته،
فيقول:

ولنعم فتیان الصباح لقيتم وإذا النساء حواسر كالعنقر

من بين واضعة الخمار وأختها تسعى ومنطقها مكان المئزر^(٢٨)

تلك كانت منزلة المرأة الحرة، ولكن صنفاً آخر من النساء لم يكن يحظين
بهذه المنزلة، وأعني الإماء والقيان، فقد كانت القينة وسيلة المتعة وقضاء
الوقت، وبخاصة في ليالي الشتاء وأيامه. يقول طرفة معبراً عن ذلك:

(٢٦) المفضلية (١٢٠) لعلمة بن عبدة.

(٢٧) المفضلية (٩٦).

(٢٨) المفضلية (٩٤).

وتقصير يوم الدَّجْن - والدجن معجب -

ببهكنة تحت الطراف المعمد^(٢٩)

ويكرر المعنى نفسه عبد المسيح بن عسلة فيقول:

وسماعُ مدجنة تُعَلَّنَا حتى نؤوب تناوم العُجْم^(٣٠)

ويكرر بشر بن عمرو المعنى فيقول:

وتبيت داجنة تجاوب مثلها خوداً منعمةً وتضرب مُعْتَبَا
في إخوة جمعوا ندى وسماحة هُضْمِ إِذَا أزم الشتاء تَزَعَّبَا^(٣١)

وكان السبي وما يلحق من عار سبباً مباشراً من أسباب وأد بعض العرب بناتهم؛ ولم تكن هذه العادة السلبية غير الإنسانية نادرة كما لم تكن عامة، ولكنها وجدت. ومن الذين وأدوا عدداً من البنات بلغن تسعاً في بعض الروايات قيس بن عاصم، وقد حدث الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك. وجاء الإسلام ونزلت في المؤودة الآيتان الكريمتان: "وَإِذَا الْمَوْدُءُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"^(٣٢). ومع كل هذه المنزلة للمرأة لم يمنع ذلك من وجود بعض الشعراء الذين يفخرون ببقر بطون الحبالى؛ فهذا عامر بن الطفيل يقول:

بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما خبطن بفيفِ الريح نَهْدَاً وخنعمَا^(٣٣)

(٢٩) معلقته.

(٣٠) المفضلية (٧٢).

(٣١) المفضلية (٧١).

(٣٢) الآيتان (٨، ٩) من صورة التكوير.

(٣٣) ديوانه (١١٨).

ومن القيم التي برزت في خضم تلك الحياة رفض الذل والهوان؛ فكان العربي يسترخص الحياة في سبيل دفع المهانة والذل، يحارب الخصم ويقاومه قتالاً انتحارياً، وهو يعلم تَفَوُّقَ خصمه عليه، لدفع الذل الذي يحاول أن يجعله يعيش فيه. يقول ربيعة بن مقروم الضبي:

ودار هوان أنفنا المقام بها فحللنا محلاً كريماً^(٣٤)

ويقول عنتر في المعنى نفسه:

لا تَسْقِنِي ماء الحياة بِذَلَّة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل^(٣٥)

ويصرخ عمرو بن كلثوم قائلاً:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبيننا أن نُقِرَّ الذل فينا^(٣٦)

وفي يوم ذي قار يقول أبو كلبة:

إن الفوارس من عجل هم أنفوا

من أن يُخَلَّوا لكسرى عرصة الدار^(٣٧)

وتعارفت العرب كلها على قانون الجوار، وكانت القبيلة تجد في حماية الجار مصدر فخر لها، وأن في منعتها منعة لها، وأن أي أذى يلحق به يلحق بها ولو كان هذا الجار من غير عصبيتها. وتغنى الشعراء بذلك كثيراً، يقول

(٣٤) المفضلية رقم (٣٨).

(٣٥) ديوانه (١٣٥).

(٣٦) معلقته.

(٣٧) تاريخ الطبري ٢/٢١١.

عبيد بن الأبرص:

نحْمِي حَقِيقَتَنَا وَنَمْنَعُ جَارَنَا وَنَلْفَ بَيْنَ أَرَامِلِ الْإِيْتَامِ^(٣٨)

ويقول حسان بن نسبة العدوي مادحاً تيمناً لأنها أبت أن تسلم جارها:

إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَفِدِ حَيًّا سِوَاهُمْ فِدَاءً لَتِيمِ يَوْمِ كَلْبٍ وَحَمِيرَا
أَبُوا أَنْ يَبِيحُوا جَارَهُمْ لِعَدُوِّهِمْ وَقَدْ ثَارَ نَقَعُ الْمَوْتِ حَتَّى تَكُوْثِرَا^(٣٩)

ويفخر المثقب العبدى بإكرام الجار ورعاية حقه فيقول:

أَكْرِمُ الْجَارَ وَأَرْعَى حَقَّهُ إِنَّ عِرْفَانَ الْفَتَى الْحَقِّ كَرَمٌ^(٤٠)

ويقرن ذلك بعدم التعرض للناس في غيابهم؛ وهو مماثل لما ورد في

القرآن الكريم "أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه"^(٤١). فيقول:

لَا تَرَانِي رَاتِعًا فِي مَجْلِسٍ فِي لَحُومِ النَّاسِ كَالسَّبْعِ الضَّرْمِ

ويمدح عدي بن يزيد بن حمار بني شيبان بحمايتهم الجار ومساواته

بأبناء القبيلة حتى أنه لينسى أنه جار لهم، فيقول:

وَمَنْ تَكْرَمَهُمْ فِي الْمَحَلِّ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُ الْجَارُ فِيهِمْ أَنَّهُ الْجَارُ

(٣٨) ديوانه (١٢٣).

(٣٩) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٣٧/١.

(٤٠) المفضلية (٧٧) وانظر شرح اختيارات المفضل (١٢٧١).

(٤١) آية (١٢) من سورة الحجرات.

حتى يكون عزيزاً من نفوسهم أو أن يبين جميعاً وهو مختار
كانه صدع في رأس شاهقة من دونه لعناق الطير أوكار^(٤٢)

ولكن الجوار لم يكن محبوباً وإيجابياً دائماً، فقد جاور البرج بن مسهر كلباً
أيام حرب الفساد، فلم يحمدهم وتحسر على أيام قومه الخوالي، وتعهد بأنهم لو
رجعوا فلن يخاصموا أبناء جلدتهم حتى الممات لئلا يضطرون إلى الخروج:

فنعم الحيّ كلب غير أتّأ رأينا في جوارهم هَنَاتِ
ونعم الحيّ كلب غير أتّأ رُزينا من بنين ومن بناتِ
فإن الغدر قد أمسى وأضحى مقيماً بين خَبَتِ إلى المساتِ
تركنا قومنا من حرب عام ألا يا قوم للأمر الشتاتِ
وأخرجنا الأيامي من حصون بها دار الإقامة والثباتِ
فإن نرجع إلى الجبلين يوماً نصالح قومنا حتى المماتِ^(٤٣)

ويفخر حُرَيْث بن جابر بتعصبه لحليفه وفزعه لظلمه فيقول:

إذا ظلمَ المولى فزعتُ لظلمِهِ فحرك أحشائي وهرتُ كلابيا^(٤٤)

وعير مساور بن هند قوماً لانتقضهم العهد، وقطعهم الرحم فقال:

قتلوا ابن أختهم وجار بيوتهم من حينهم وسفاهة الألباب
غدرت جذيمة غير أنني لم أكن أبدا لأولف غدره أثواني

(٤٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٠١/١-٣٠٢.

(٤٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٥٩/١-٣٦٢.

(٤٤) المصدر السابق ٣٧٦/١.

وإذا فعلتم ذلكم لم تتركوا أحداً يذب لكم عن الأحساب^(٤٥)

ويوصي العباس بن مرداس غيره بالحفاظ على الجار، فيقول:

عليك بجار القوم عبد بن حَبْتَرِ فلا تَرَشُّدَنْ إِلَّا وِجَارَكَ رَاشِدُ
فإن غضبت فيها حبيبُ بن حبتَرِ فخذ خطة يرضاك فيها الأباعِدُ
إذا طالت النجوى بغير أولى القوى أضاعت وأضعت خدَّ مَنْ هو وارِدُ
فحاربُ فإن مولاك حارِدَ نَصْرُهُ ففي السيف مولى نَصْرُهُ لا يحارِدُ^(٤٦)

ويعرِّض جحدر بن خالد بغير قومه الذين يُرَوِّعُ جارهم ويغدر به، فيقول:

ونحن الذين لا يُرَوِّعُ جارنا وبعضهم للغدر صُمِّمَ مسامعُه^(٤٧)

ويعير أبو تمام خصمه بأن جاره سهل المنال كالصيد لمن يطلبه بينما
جاره لا يطلب، ولا يطمع فيه:

فجارك عند بيتك لحمٌ ظبي وجاري عند بيتي لا يرام^(٤٨)

وكأنما أصبحت حماية الجار والمحافظة عليه جبلة وقانوناً يلتزمون به
في الجاهلية؛ يقول عوف بن عطية:

وأمنع جاري من المجحفات والجار ممتنع حيث صار^(٤٩)

(٤٥) المصدر السابق ١/٤٣١-٤٣٢.

(٤٦) شرح الحماسة للمرزوقي ١/٤٣٧-٤٣٨.

(٤٧) المصدر نفسه ٢/٥١٤.

(٤٨) المصدر نفسه ٢/٥٨١.

(٤٩) المفضلية (١٢٤).

ومن القيم التي فخرُوا بها صون الأمانة، وعدم التفريط بها مهما كانت الأسباب والنتائج؛ يقول الشنفرى مفضلاً الوحوش على القوم الذين تركهم:
هم الرهط لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جِرَّ يُخْذَلُ^(٥٠)

ولعل صورة يوم ذي قار تشهد بالصورة المشرفة المشرقة لتحمل القبيلة مسؤولية صون الأمانة، ولو أدت النتيجة إلى ملاقاته جيوش الفرس الجرارة. وقد أصبح هذا اليوم مدعاة لفخر شعراء بكر وتغنيهم بذلك، بل لفخر العرب جميعاً؛ فقد أقسمت بكر ألا تفرط بتلك الدروع التي أودعها النعمان عندهم، وأن أنجم السماء أقرب إلى كسرى من تلك الدروع. يقول الأعشى شاعرهم:

فما حلقة النعمان يوم طلبتها بأقرب من نجم السماء تراقبه^(٥١)

ويقسم في قصيدة أخرى بآلهة العرب وبغيرها على الحفاظ على تلك الأدرع مهما غلا الثمن:

حلفت بالملح وبالرماد وبالعرزى وباللات تُسُّ لَمْ الحلقه
حتى يظل الهام منجدلاً ويقرع التَّيْل طَيْرَةَ الدَّرْقَه^(٥٢)

ويخاطب راشد بن شهاب اليشكري قيس بن مسعود الشيباني بشأن تلك الأدرع مؤنباً فيقول:

وكنت زماناً جارَ بيتٍ وصاحباً

ولكنَّ قيساً في مسامعه صَمَمٌ

(٥٠) لامية العرب.

(٥١) ديوانه.

(٥٢) ديوانه والأغاني (دار الثقافة) ٢٣/٢٢٩.

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد

أموفٍ بأدراع ابن طيبة أم تُدَمُّ

بذمٍ يُغَشِّي المرء خزيًا ورهطه

لدى السَّرحة العَشَاء في ظلها الأَدَمُّ^(٥٣)

وكان من مظاهر الصلوات السليمة في العصر الجاهلي الأَحلاف؛ فكانوا يغمسون في أثناء عقد أحلافهم في طيب أو دم، ويقولون "الدم الدم، والهدم الهدم، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شَدًّا، وطول الليالي إلا مَدًّا، ما بَلَّ البحر صوفه، وأقام رضوى في مكانه". وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ودعوا الله أن يحرم من ينقض عهد الحلف من منافعها. وربما دنوا من هذه النار حتى تكاد تحرقهم، كما حدث لقبائل من مرة بن عوف الذين تحالفوا عند نار، فدنوا وعشوا بها حتى محشتهم فسموا به "المحاش"^(٥٤).

ومهما يكن من دوافع هذه الأَحلاف ونتائجها فيجب أن لا ننسى أنها لعبت دوراً كبيراً إيجابياً في تكوين القبائل، وجعلت القبائل الضعيفة تنضم إلى القوة الكبيرة لتحميها، وتردّ العدوان عنها^(٥٥).

ولا يغيب عن بالنا أحلاف كانت غايتها دفع الظلم والشر، أو نشر الأمن في ربوع الجزيرة. وخير مثال لذلك حلف الفضول بين بطون قريش^(٥٦)؛ وسببه أن رؤساء بطون قريش اجتمعوا فاتفقوا ألا يدعوا أحد يظلم أحداً إلا نصرُوا المظلوم على الظالم، وأخذوا له حقه. وانتشر التحالف بين القبائل بصورة أوسع

(٥٣) المفضلية (٨٦).

(٥٤) الحيوان للجاحظ ٤/٤٧١.

(٥٥) انظر معجم البكري ٥٣/١ وما بعدها.

(٥٦) المحبر - لابن حبيب (١٦٧).

قبيل الإسلام، ولم تبق خارج هذه الأحلاف إلا جمرات العرب^(٥٧)، ولعل انتشار المحالفات كان إحساساً من القبيلة العربية بأنها بحاجة إلى الانفتاح على غيرها من القبائل، وربما كان ذلك إرهاباً ببدء نهضة قوية أفاد منها الإسلام في توحيد أمة استطاعت حمل رسالته الخالدة إلى العالم.

وللحليف في المجتمع الجاهلي حقوق وعليه واجبات. ويفخر العربي بأن حليفه لا يضام:

إِنَّا لَعَمْرُكَ لَا يَضَامُ م حَلِيفِنَا أَبَدًا لِدِينِنَا^(٥٨)

ولا يجوز فضّ الحلف أو الغدر بالحليف ما دام الحلف معقوداً. وحرص المجتمع حينذاك على المحافظة على قداسة الحلف، واعتبر المساس به عاراً يلحق بالقوم؛ بل لقد شبهه النابغة بالفجور عندما قتلت عبس نضلة الأسدي، وكان بين أسد وذبيان حلف وأراد عيينة بن حصن الفزاري مساعدة بني عبس، فقال محذراً:

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدِ فَجُورًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مَنِّي
هُوَ دَرَعِي الَّتِي اسْتَلَمْتُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ النَّسَارِ وَهُمْ مَجَنِّي^(٥٩)

ويفتخر الحادرة بذلك فيقول:

إِنِّي نَعَفٌ فَلَا نَرِيبَ حَلِيفِنَا وَنَكْفُ شُبْحَ نَفُوسِنَا فِي الْمَطْمَعِ^(٦٠)

(٥٧) الحيوان ١٢٣/٥، المحبر (٢٣٤).

(٥٨) ديوان عبيد بن الأبرص (١٣٥).

(٥٩) ديوانه (١٩٩).

(٦٠) المفضلية رقم (٨).

ومن القيم الخالدة التي رسخت معالمها في نفسية العربي الجاهلي رفضه الضيم ولو كان من أهله وذويه، لأن قبوله يتنافى مع قيم أخرى آمن بها المجتمع الجاهلي فرادى وقبائل. يقول الشنفرى:

ولولا اجتناب الذام لم يُلَفَ مشرب يعاش به الا لذيٍّ ومأكُلُ
ولكنَّ نَفْساً مُرَّةً لا تقِيم بي على الضيم إلا ريثما أتحوّل

وهو يرفض أن يشعره أحد بأن له فضلاً عليه، ويؤثر عليه أن يستفَّ
تراب الأرض:

وأستفُّ تُربَ الأرض كي لا يرى له علي من الطَّوْلِ امرؤٌ متطوِّلُ^(٦١)

والجاهلي يرى الأرض واسعة ينتقل فيها الإنسان إذا أحس بأن أذى أو
ضيماً سيناله. يقول الشنفرى في بداية لاميته التي أعلن فيها بتر علاقته
بمجتمعه فلجأ إلى الصحراء ووحوشها:

وفي الأرض منأى للكريم من الأذى وفيها لمن خاف القلى مُتَعَزِّلُ
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ^(٦٢)

ويُعبرُ عنثرة العبسي عن الروح نفسها حين يقول:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل^(٦٣)

وما الحروب التي تأججت نارها في الجزيرة العربية إلا صورة طبيعية لرفض

(٦١) لامية العرب.

(٦٢) لامية العرب.

(٦٣) ديوانه ص(١٣٥).

العربي الذل والضميم، فقد كانت القبائل تحتكم إلى سيوفها ورماحها لتردّ الظلم والضميم.

ومن القيم والمثل الإيجابية التي عرفها العصر الجاهلي ذلك اللون من الشعر الذي عرف بالمنصفات، وحاول فيها الشعراء الفرسان إنصاف خصومهم، أو خصوم قبائلهم بالرغم من أنهم أعداء لهم. وقد عرفت الجزيرة هذا اللون منذ التقى الفرسان في ساحات الوغى. ويُعتَبَر المهلهل بن ربيعة أول من أنصف في شعره حين قال في يوم عنيزة:

كَأَنَّا غُدُوَّةٌ وَبَنِي أَيْبِنَا بَجْنِبِ عَنِيزَةَ رَحِيًّا مَدِيرِ^(٦٤)

ويدهي أن يرتبط هذا اللون من الشعر بالمعارك والأيام، وأن يصدر على أسنة الشعراء والفرسان، وهم أولى العرب باحترام تقاليد الفروسية، فهم أبوا طعن أعدائهم من الخلف وهم مدبرون، ولم يعتادوا الغدر، ولم يقتلوا مقاتلاً إلا نده في الشجاعة. وإن فارساً هذه تقاليد يعز عليه أن يرى خصمه الفارس الشجاع مجندلاً أمام عينيه، على الرغم من أنه هو الذي صرعه؛ يعز عليه ذلك لسببين، أولهما لأنه فارس ويقدر الفارس الشجاع؛ وثانيهما لأنه يتخيل أنه سيجندل في يوم الأيام. وربما كان ذلك بسبب إحساس الشاعر الجاهلي بمأساته: مأساة الإنسان، وهي الفناء الأبدي، والتلاشي إلى عدم؛ فكأنما يرثي حاله ونفسه، وكأنما يبكي مصيره وحتمية ذلك المصير.

لقد التقى قيس بن زهير العبسي وحمل بن بدر الفزاري، فقتل قيس حملاً؛ وما أن رآه صريعاً حتى هاجت به الذكريات، وتذكر أشياء كثيرة منها صلات القربى، وظلم القتيل، فقال فيه:

تَعَلَّمْ أَنْ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا عَلَى جَفْرِ الْهَبَاءِ مَا يَرِيْمُ

(٦٤) الأصمعية رقم (٥٣).

ولولا ظلمه ما زلت أبكي
عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكنّ الفتى حمل بن بدر
بَعَى، والبُعَى مرتعه وخيم^(٦٥)

واضطر القتال الكلابي لقتال فارس ولم يكن يرغب في ذلك النزال؛ وتدور
الدائرة على خصمه، ويندم القتال على مقتله ندماً شديداً، ويقول في قصيدة له:
ولما رأيتُ أنني قد قتلتَه ندمت عليه أي ساعة مندم^(٦٦)

وينتزع الفارس المقدام إعجاب خصمه ومنازله؛ فقد رأى دريد بن الصمة
ربيعة بن مكرم، فارس كنانة، وقد انكسر رمحه بعد أن صرع ثلاثة من أصحاب
دريد الفرسان؛ فقال دريد: أيها الفارس إن مثلك لا يقتل، ولا أرى معك رمحاً،
فدونك هذا الرمح. ورجع دريد يثبّط أصحابه عن ربيعة بن مكرم. فانصرف القوم
ونجا ربيعة. وأنشد دريد معبراً عن إعجابه بذلك الفارس الخصم.

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
أردى فوارس لم يكونوا تُهزّة
متهلل تبدو أسرّة وجهه
يُزجي ظعيفته ويسحب رمحه
وترى الفوارس من مخافة رمحه
يا ليت شعري من أبوه وأمه
حامي الظعينة فارساً لم يُقتل
ثم استمر كأنه لم يفعل
مثل الحسام جأته كف الصيقل
متوجهاً يميناه نحو المنزل
مثل البغاث خشين وقع الأجدل
يا صاح من يك مثله لم يُجهل^(٦٧)

(٦٥) الحماسة بشرح المرزوقي ٤٢٨/١.

(٦٦) المصدر السابق ٢٠١/١.

(٦٧) الأغاني (دار الكتب) ٦٦/١.

ولكن الإنصاف لم يقف عند حد إنصاف فارس شاعر لفارس آخر قتله، بل إن الشعراء أنصفوا خصوم قبيلتهم. والأمثلة في الشعر الجاهلي كثيرة لا يتسع لها البحث، وهي متنوعة بين قصائد ومقطوعات. لذا سنقصر الأمر على بعض الأمثلة.

غزا عباس بن مرداس السلمي وقومه بنو سليم مرادا، ووقف عباس بن مرداس شاعرهم وفارسهم ينصف الأعداء؛ وبلغ من محاولة الإنصاف أنه وزع أبيات القصيدة بين قومه وبين أعدائهم، بل جعل بيت الشعر الواحد مناصفة بينهما: وكان إذا خصص الشطر الأول من البيت لقومه، جعل الشطر الثاني للأعداء، وعكس الوضع في البيت التالي:

فلم أرَ مثل الحيّ حيّاً مصبجا	ولا مثلنا لما التقينا فوارسا
أكرّ وأحمى للحقبة منهم	وأضرب منا بالسيف القوانسا
وأحصننا منهم فما يبلغوننا	فوارس منا يحبسون المحابسا
إذا ما شددنا شدةً نصبوا لها	صدور المذاكي والرماح المداعسا ^(٦٨)

وثمة شاعر آخر هو المفضل النُكريّ، من شعراء عبد القيس، صوّر لنا لقاء بين جيش قومه وجيش الأعداء، فأنصفهم؛ وها هو ينقل صورة متقابلة للفريقين فيقول:

همو صبروا فصَبْرُهُمْ تليد	على العزّاء إذ بلغ المضيفُ
وهم دفعوا المنية فاستقلّت	داركاً بعد ما كادت تُحيقُ
تلاقينا بغيبة ذي طريف	وبعضهم على بعض حنيقُ
فجاءوا عارضاً برداً وجئنا	كسيل العرض ضاق به الطريقُ

(٦٨) الأصمعية رقم (٧٠).

مشينا شَطْرَهُمْ ومشوا إلينا
وكم من سيّد منّا ومنهم
فأشبعنا السباع وأشبعوها
فأبكيننا نساءهُم وأبكووا
وقلنا: اليوم ما تُقضى الحقوقُ
بذي الطرفاء منطِقُهُ شَهيقُ
فراحت كلّها تتّق يفوقُ
نساء ما يسوغ لهن ريقُ^(٦٩)

ويصل الإنصاف ذروته حينما نرى الشاعر الجاهلي ينصف خصومه
الذين هزموه وهزموا قومه؛ وهذا يمثل ذروة الإنصاف والاعتراف بالهزيمة
وبتفوق الخصم؛ فقد سجل لنا البراء بن قيس الكندي اعترافاً بهزيمة قومه،
وأنصف الأعداء بقوله:

فَتَأْتِنَا تَمِيمٌ يَوْمًا جَدِيدًا
يَوْمَ جِئْنَا يَسُوقُنَا الْحَيْنُ سَوْقًا
وَحَشْدُنَا الصَّمِيمَ نَرْجُو نَهَابًا
قَتَلَ عَادَ وَذَاكَ يَوْمَ الْكَلَابِ
نَحْوِ قَوْمٍ كَأَنَّهُمْ أُسْدُ غَابِ
فَلَقِينَا الْبَوَارَ دُونَ النَّهَابِ^(٧٠)

لا يضعف من قيمة هذه الأبيات إلا خشيتنا من أن تكون العصبية القبلية
قد دَفَعَتْ بعض الرواة إلى انتحالها.

ولبعض الجاهليين موقف خاص من الخمر؛ فقد عدت المصادر القديمة
لنا نفرًا حَرَمُوا الخمر في الجاهلية على أنفسهم، ومنهم: عامر بن الظرب
العدواني، وقيس بن عاصم، وصفوان بن أمية، وعفيف بن معد يكر، والعباس
بن مرداس السلمي، وورقة بن نوفل، والوليد بن المغيرة، وزيد بن عمر بن نفيل،
وقيس بن ساعدة، وعبيد بن الأبرص، وأبو ذر الغفاري، وزهير بن أبي سلمى،

(٦٩) الأصمعية رقم (٦٩).

(٧٠) الأغاني (دار الكتب) ٣٣٩/١٦.

والنابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، وحاتم الطائي، وغيرهم^(٧١).

ولم يكن تحريم هؤلاء الخمر محض صدفة، أو لأن ديناً أو عقيدة أمرهما بذلك، ولكن ربما كان للتجربة سبب لذلك. يحدثنا صاحب الأغاني أن قيس بن عاصم المنقري سبكر ذات ليلة قبل أن يسلم، فغمز عكذبة ابنته، وفي رواية أخرى أخته، فهربت منه. فلما صحا من الخمر سئل عما صنع الليلة الماضية، فلم يدر بماذا يخبرهم. فأخبروه بما فعل، فحرّم الخمر على نفسه، وقال في ذلك شعراً يوضح ما تفعله الخمر بصاحبها، حيث تذهب بعقله، وتفضح شاربها، وتحيل الرجل الحليم سفيهاً:

وجدتُ الخمرَ جامحةً وفيها	خصالٌ تفضح الرجلَ الكريم
فلا والله أشربُها حياتي	ولا أدعو لها أبداً نديماً
ولا أعطي بها ثمناً حياتي	ولا أشفي بها أبداً سقيماً
فإن الخمرَ تفضح شاربها	وتُجشّمُهم بها أمراً عظيماً
إذا دارت حميّاها نعلت	طوالعُ تُسْفِه الرجلَ الحليماً ^(٧٢)

ويضيف الأغاني في رواية أخرى أن قيس بن عاصم هو أول عربي حرّمها على نفسه في الجاهلية؛ وهو القائل فيها:

فوالله لا أحسو يد الدهر خمرة	ولا شربةً تزري بذّي اللب والفخر
فكيف أدوق الخمر والخمر لم تزل	بصاحبها حتى تكسّع في الغدر
وصارت به الأمثال تُضرب بعدما	يكون عميد القوم في السر والجهر

(٧١) المحبر - ابن حبيب (٢٣٧)، أمالي القالي ٢٠٤/١، نهاية الأرب للنويري ٨٨/٤.

(٧٢) الأغاني (دار الكتب) ٨٤/١٤.

ثم يخاطب شارب الخمر محذراً وناصحاً بتركها لأن شاربها لا يدري ما
يضره وما ينفعه:

فيا شارب الصهباء دعها لأهلها الغواة وسلم للجسيم من الأمر
فإنك لا تدري إذا ما شربتها وأكثرت منها ما تريح وما تبرى^(٧٣)

وإذا كان قيس بن عاصم يطلب من شارب الصهباء أن يدعها لأهلها
الغواة فإنه يقر بأن فريقاً آخر يشربها، ولكنهم غواة. فهل كان العرب في
الجاهلية ينعنون شارب الخمر بالغاوي؟ ذلك ما لا تؤيده الشواهد الشعرية
والأخبار التي بين أيدينا. ولكن تلك الروايات تحدثنا أن الخمر لم يكن يشربها
إلا الموسرون، وقد تحدثوا عن مجالس الشرب والندامى.

ويشاطر عبد المسيح بن عسلة قيس بن عاصم بأن الخمر تذهب بالعقل
فيقول:

والخمر ليست من أخيك ولكن قد تخون بأمن الحلم
وتبيّن الرأى السفيه إذا جعلت رياح شمولها تنمي^(٧٤)

والحكم والأمثال تمثل فلسفة الحياة الأولى، ولها من تاريخ الفكر أهمية
كبيرة لا تدرك إلا بالتعمق في دراسة نفسية الشعوب، ودراسة التطور الفكري
عند البشر. وحكم الجاهليين وأمثالهم - كما ذهب بعض الباحثين^(٧٥) - تشيران
إلى أن الحياة جلاذ وكرامة، وأن الحق فيها للقوة، وأن زينة المرء شرفه.

(٧٣) المصدر نفسه ٨٥/١٤.

(٧٤) المفضلية (٧٢).

(٧٥) الحكم والأمثال - حنا فاخوري (١٧).

وبمعنى آخر فإن الفلسفة الجاهلية فلسفة أخلاقية عملية، بعيدة عن الميتافيزيقيات؛ فلسفة مادية روحانية، وروحانياتها مسحة أخلاقية كريمة.

وقد استوعب الحِكَمَ شكلا اللغّة، الشعر والنثر. يقول زهير في معلقته بعد أن تحدث عن عقد الصلح بين عبس وذبيان:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يُضَرِّسُ بأنياب وبوطاً بمنسم

ويقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصِيبُ ثَمَّتْهُ وَمَنْ تَخْطِئُ يَعْمَرُ فِيهِرْم

ويقول:

ومن لا يَدُذُّ عن حوضه بسلاحه يُهْدَمُّ ومن لا يظلم الناس يُظَلَم

وكان الموت لغزاً رهيباً لا يقوى الجاهلي على حله، فجعله واقفاً حائراً وهو يرى أحبته يتساقطون، ولا يملك تفسيراً لذلك. فالموت فناء مطلق لا رجعة فيه ولا مفر منه. يرثي لبيد أخاه أريد وينظر إلى الحياة ونهايتها فيقول:

فلا جزعٌ إن فَرَّقَ الدهر بيننا فكل امرئ يوماً به الدهر فاجعُ
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يَحُورُ رماداً بعد إذ هو ساطعُ
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ
وما الناس إلا عاملان: فعامل يُنَبَّرُ ما بيني وآخر رافعُ
فمنهم سعيد أخذ بنصيبه ومنهم شقيّ بالمعيشة قانعُ

فلا تبعدن إن المنية موعد علينا فدانٍ للطلوع وطالع^(٧٦)

ويرى طرفة بن العبد الموت الوسيلة الوحيدة التي تساوي بين الناس
فقيرهم وغنيهم فيقول:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمّ من صفيح منضدٍ
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلةً مال الفاحش المتشدّد^(٧٧)

ويرى أن العيش كنز ولكنه ينقص كل ليلة، وأنه آت لا محالة. ولعل
استعمال الشاعر لفظة "كنز" يشير إلى أهمية الحياة بالنسبة للشاعر، وللجاهلي
بعمامة، وفي استعمالها ما يشرح ويفسر جزعه من الفناء، كما أن تصويره
بالحبل المرخي إشارة إلى الحتمية التي لا انفكاك منها:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تُنقص الأيام والدهر يُنفد^(٧٨)
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرضي وتُشياه باليدِ
متى ما يشأ يوماً يُفدّه لحتفه ومن يكُ في حبل المنية يُنقدِ

ويسخر امرؤ القيس من الناس ومن نفسه الذين يسيرون فلا يعرفون
مصائرهم، وأنهم ضعاف، ومع ذلك فإنهم أجراء من مجلخة الذئاب:

أرانا موضعين لأمر غيب ونسخر بالطعام وبالشرابِ
عصافير وذبابان ودودٌ وأجراء من مجلخة الذئاب^(٧٩)

(٧٦) ديوانه (١٦٨-١٧١).

(٧٧) ديوانه (٥٣).

(٧٨) ديوانه (٥٣-٥٤).

(٧٩) ديوان امرئ القيس.

ومن الحكم النثرية:

أكثر من الصديق فإنك على العدو قادر (قالها أبجر بن جابر العجلي)^(٨٠).

والدال على الخير كفاعله (قالها اللجيج بن شنيف اليربوعي)^(٨١).

وإذا عز أخوك فهن، (قالها الهذيل بن هبيرة)^(٨٢).

ومن القيم الجاهلية البارزة في ذلك العصر ذلك التناقض الظاهر بين ظاهرتين، أولاهما نجد فيها الشاعر الجاهلي يحرض قومه وفرسانهم على تقتيل الأعداء والفتك بهم؛ وهذا ما ليس موضعه هذا البحث، وثانيتها نجد فيها الشاعر الجاهلي يدعو إلى التسامح والسلم والصلح. وهذه الظاهرة تبرز بوضوح حينما يكون الفريقان المتصارعان ينتميان إلى قبيلة واحدة أو إلى بطن كبير من بطون عدنان أو قحطان. وكأنني بالشاعر، وهو رائد في قومه وزعيم موجه لسياسة القبيلة، يحس إحساساً عميقاً بصلة الرحم والقربى، ويحرص عليها من أن تتقطع أوصالها. فهذا قيس بن زهير العبيسي يقتل حمل بن بدر الفزاري ومع ذلك فهو يصرخ حزناً باكياً:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
فإن أكل قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني^(٨٣)

(٨٠) الوسيط في الأمثال للواحي (٥٣).

(٨١) المصدر السابق (٤٩).

(٨٢) المصدر السابق (٤١).

(٨٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠٣/١.

وسنان بن أبي حارثة يخاطب المثلث بن رياح بن ظالم المُري محذراً
ومتوعداً:

فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِي المثلث آية

وسهلاً فد نَفَرْتُم الوحش أجمعاً

همو إخوتي دنيا فلا تقربنهم

أبا حشرج وافسح لجنبك مضجعاً^(٨٤)

ويجيبه المثلث بن رياح ويرد على تهديده:

وشجنة أن قوما خذا الحق أو دعا

وأغضب أن لم تعط بالحق أشجعا

صياح بنات الماء أصبحن جوعاً

بني عمنا من يَزِمْنَا يَزِمْنَا معاً^(٨٥)

فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِي سناناً رسالة

سأكفبك جنبي وضعه ووساده

تصيح الردينيات فينا وفيهم

لففنا البيوت بالبيوت فأصبحوا

ويحاول الحصين بن الحمام المري إقناع بطن آخر من قبيلته حتى لا

يكرهوه وقومه على ما لا يحبون:

ذروا موليينا من قضاة يذهبوا

فلا تعلقونا ما كرهنا فنغضبوا

لنا نسباً عنهم ولا منتسباً

ولن تجدونا للفواحش أقرباً^(٨٦)

فيا اخويننا من أبيننا وأمتنا

فإن أنتم لم تفعلوا لا أبا لكم

ونحن بنو سهم بن مرة لم نجد

متى ننتسب تلقوا أبانا أباكم

(٨٤) معجم الشعراء للمرزباني (٣٨٦).

(٨٥) شرح الحماسة للمرزوقي ١/٣٨٣-٣٨٤.

(٨٦) المفضلية (٩٠).

ويتحسر غلاق مروان على فرقة عبس وذبيان بسبب الرهان بين داحس
والغبراء فيقول:

هم قطعوا الأرحام بيني وبينهم
فيا ليتهم كانوا لأخرى مكانهم
شأمتم بها حيي بغيض وعرّيت
وكانت بنو ذبيان عزاً وإخوة
وأجروا إليها واستحلّوا المحارماً
ولم تلدي شيئاً من القوم فاطماً
أباك فأودى حيث والى الأعاجماً
فطرتهم وطاروا يضربون الجماجماً^(٨٧)

ويصور خالد بن نصلة ما يلقي تارك قومه إلى قوم آخرين وما سيلقى
فيقول:

لعمري لرهط المرء خير بقیة
من الجانب الأقصى وإن كان ذا غنى
عليه وإن عالوا به كل مركب
فكل ما علقت من خبيث وطيب^(٨٨)

وتتسع دائرة الانتماء وتتضح عند شاعر من بني عبس فيميز بين فرعي
العرب الكبيرين: عدنان وقحطان فيرى القرابة من جهة الحارث بن كعب لأنهم
من نزار، لا من جهة جرم وراسب لأنهم من قضاة من اليمن.

أرق لأرحام أراها قريبة
وأنا نرى أقدامنا في فعالهم
وأخلافنا إعطاءنا وإباءنا
لحار بن كعب لا لجرم وراسب
وأنفنا بين اللحي والحوجب
إذا ما أبيننا لا ندر لعاصب^(٨٩)

(٨٧) شرح الحماسة للمرزوقي ٤٥٥/١.

(٨٨) المصدر السابق ٣٥٨/١-٣٥٩.

(٨٩) المصدر السابق ٣٢٨/١-٣٢٩.

ويتضح هذا الانتماء بدرجة كبيرة حتى أن قوماً يقتلون شقيق الحارث بن
وعلة الذهلي فيحار بين الأخذ بالثأر والعفو بسبب القرابة، ويعبّر عن ذلك
فيقول:

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميتُ يصيبي سَهْمِي
فلئن عفوتُ لأعفونَ جَلَا ولئن سطوت لأوهننَ عَظْمِي^(٩٠)

د. عفيف عبدالرحمن

(٩٠) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠٤/١.

١- الأصمعيات

تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون - دار المعارف ط٢:

١٩٦٤,

٢- الأغاني

طبعة دار الكتب، وطبعة دار الثقافة بيروت.

٣- الأمالي

للقالبي - ط بيروت - دار الحكمة - د.ت.

٤- تاريخ الطبري

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف، ١٩٦٨

٥- جمهرة اللغة

لابن دريد - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة.

٦- الحماسة

لأبي تمام بشرح المرزوقي، تحقيق عبدالسلام هارون ورفيقه - مطبعة

لجنة التأليف والترجمة - ط٢: ١٩٦٧،

٧- الحيوان

للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٣: بيروت - دار الكتاب العربي

١٩٦٩،

٨- ديوان الأعشى

تحقيق محمد محمد حسين - دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٧٢

- ٩- ديوان امرئ القيس
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف ط٣: ١٩٦٩,
- ١٠- ديوان طرفة بن العبد
تحقيق علي الجندي - مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨،
- ١١- ديوان الطفيل الغنوي
تحقيق محمد عبدالقادر أحمد - دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٨.
- ١٢- ديوان عامر بن الطفيل
دار صادر - بيروت ١٩٦٣.
- ١٣- ديوان عبيد بن الأبرص
تحقيق حسين نصار - مكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر، ١٩٥٧،
- ١٤- ديوان عمرو بن شأس
تحقيق يحيى الجبوري - مطبعة الآداب - النجف، ١٩٧٦،
- ١٥- ديوان عنتره
تحقيق عبدالمنعم شلبي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر - د. ن.
- ١٦- ديوان النابغة الذبياني
تحقيق شكري فيصل - دار الفكر - بيروت - ١٩٦٨.
- ١٧- ديوان لبيد بن ربيعة
تحقيق إحسان عباس - وزارة الإرشاد بالكويت ١٩٦٢.
- ١٨- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب
لأبي الفوز البغدادي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر - د. ت.
- ١٩- شرح اختيارات المفضل للتبريزي
تحقيق فخر الدين قباوة - مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤.

- ٢٠ - شرح المعلقات السبع للزوزني
دار الجيل بيروت - ط٢: ١٩٧٢.
- ٢١ - شرح النقائض لأبي عبيدة
صورة بالأفست - مكتبة المثنى - بغداد - د.ت.
- ٢٢ - القرآن الكريم
- ٢٣ - لامية العرب للشنفرى
تحقيق محمد عبدالبديع شريف - دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٤.
- ٢٤ - المحبر لابن حبيب
تحقيق ايلزا ليختن شتيتير - المكتب التجاري بيروت - د.ت.
- ٢٥ - معجم الشعراء للمرزباني
تحقيق عبدالستار فراخ، مكتبة عيسى البابي الحلبي، مصر ١٩٦٠.
- ٢٦ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس
تحقيق عبدالسلام هارون - ط٢ مطبعة الحلبي ١٩٦٩-١٩٧٢.
- ٢٧ - المفضليات
تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون - دار المعارف ١٩٦٤.
- ٢٨ - نهاية الأرب للنويري
الهيئة المصرية العامة - ١٩٦٤.
- ٢٩ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير
تحقيق طاهر الزواوي ومحمود الطناحي - بيروت - د.ت.
- ٣٠ - الوسيط في الأمثال للواحي
تحقيق عفيف عبدالرحمن - مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت
١٩٧٥.